الترجمة والتناص

Translation and Intertextuality

د. بلقاسم عيساني *

تاريخ الإرسال: 2021/06/02	تاريخ القبول: 2021/06/06	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

للتناص باعتباره مجموع نصوص متداخلة علاقة وطيدة بالترجمة، لأنه إن لم يكن هناك نص بل تناص كما ورد في توصيف جوليا كريستيفا، كيف يمكن ترجمة تلك الاقتباسات والتلميحات ؟ وكيف نجد مكافئاتها في اللغة الهدف دون أن تفقد خصوصياتها الدلالية كونها غير معروفة لدى المتلقي الثاني، كما يمكن أن نقيم مقارنة لنشير إلى التماثل بين ثنائية المنطقين التناصي والترجمي باعتبار وجود نص سابق وآخر لاحق.

الكلمات المفتاحية: الترجمة، التناص، النص، التأويل، الخطاب.

Abstract:

Intertextuality as a text related to other texts has a very close relationship with translation, because it seems that there is no text without intertexts as Julia Kristeva said, so, how can we translate quotations, allusions? and how can we find their equivalences in the target language without losing their meanings, because the quoted text is not known at the second reader ?

We can also make a comparison between intertextuality and translation since the two have logical duality between previous and later text.

***Key words**: Translation، Intertextuality، Text، interpretation، speech*

*** *** ***

المؤلف المرسل : بلقاسم عيساني aissani.belkacem@univ-medea.dz

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة يحي فارس المدية aissani.belkacem@univ-medea.dz

مقدمة:

ترسّخ المعتقد التناصي في الكثير من الأذهان، والذي مفاده أنّ كل نص هو تناص، أي نواته التكوينية تتمثل في مجموعة نصوص، أعلنت ذلك جوليا كريستيفا، وأنضج الفكرة رولان بارت حين اعتبر النص جيش خلاص مجهولة مصادره، إذن يصبح النص شبكة تعالقية مع نصوص أخرى كونه أخذ بعضا من مبتوراتها، فإذا عزمنا على ترجمة هذا النص لابد أن ذلك يعني أننا نترجم مجموعة نصوص ذات منابع شتى متضمنة فيه، هذا الشتات ذو العلاقات المتشعّبة، معني بالترجمة، مما يجعل التصدي له مهمة تعجيزية، باعتباره أصولا نصّية مختلفة المنشأ والنوع، تشترك كلها في صنع المعنى والقيم الجمالية والاتصالية والوظيفة التي يلعبها النص الجامع لها، كما أن هذه الشذرات الجزئية قد تتخذ لنفسها قالبا بعينه تتمظهر به في النص، والترجمة من واجبها الحفاظ على هذه القوالب والأشكال، فقد يتخذ التناص شكل شاهد، أو تلميح، أو معارضة ساخرة الخ من الطبائع التي يتلون بها الوجود التناصي، وقد يكون هذا التشكل ببعد جزئي أو يغايره ليكون كليا كالتأشير على أعمال بكاملها، فإذا كان للتناص وجود لساني، فله وجود ترجمي أيضا، ولهذا وجب تأسيس القول بأن الترجمة تكون أساسا بين الخطابات(وفق التنظير الكريستيفي) وليس فقط بين النصوص التي تمثلها، فالحقول الدلالية لها خصوصياتها المائزة التي تخلق الدلالة وتوجهها وتنميها، فتتوحد الترجمة بالتناص في مسألة المدلول الخطابي رهان التعرف والتفاعل في كل منهما وحين تكون الفعالية واحدة تصبح الترجمة جزء من التناص ليس إلا. إن أفضل تعريف للتناص حينما نقارب به الفعل الترجمي هو تعريف جيرار جينات : نص سابق وآخر لاحق ، أي hypotexte، وhypertexte ، كون التعريف يخلق ثنائية المنطق المقارن، إذ في الترجمة لنا أيضا نص سابق هو النص في اللغة الأصل والنص الثاني أي المترجم، وبينهما صلات تناصية جمة بتحول المعنى صياغيا إلى لغة أخرى ، ورصد مجمل التغييرات بين النصين يجعلنا نفقه تقنيات الترجمة في بعدها التطبيقي.

2. حيثيات التناصية

التناص يلعب دورا مهما في إنتاج النصوص و تلقيها، عبره يتشكل المعنى، وقيمة النص ووظيفته، يشتغل داخل اللغة، ويحيل على مكونات لسانية شديدة الارتباط بخطاباتها، إذ يفترض أن النصوص وليدة تقاليد أدبية ولسانية ومعبرة عن منطوقات ثقافية، وفي هذه التواصلية التي لا تعرف الانقطاع نفهم أفق المعاني المطروحة، وهذا يعني ببساطة أن التعبير ذا القيمة الفنية والفكرية لا يمتح فقط من التركيب اللغوي إذ أن فهمه يحتاج إلى الإحاطة المذكورة آنفا، ولكي نستطيع أن نترجم من لغة الى أخرى لابد لنا من معرفة كل هذا الكل المتراس أركيولوجيا، هذا في اللغة الأم، فإذا تطلب الفعل الترجمي ذات الثقافة الواسعة في اللغة المترجم إليها نعلم حينذاك احترافية المعلومات التي يجب أن تتوفر في الترجمة ، لكن أبسط معرفة هي عملية التعرف على التناصات والحرص على نقلها الى اللغة الأخرى، فالتلقي عامل حاسم في تفاعلية الكتابة والقراءة كونهما وجهان لعملة واحدة، فالقارئ لا يجب عليه فقط أن يمتلك مفاتيح المعرفة الأدبية والثقافية الضرورية، أي اتساع معرفي يتعرف به على النصوص السابقة التي تحتويها النصوص الحالية، بل عليه أن يكتسب القدرة على الفكر النقدي الذي يخترق الدلالة التناصية ويعبر عنها، والتعبير لا يمتح من دلالة النص المباشرة فقط، بل من الروح العامة للتقاليد التعبيرية السائدة في بعد زمكاني ما، أي أن التقاليد تؤلف سياقا غير مرئي في حيثيات الصياغة لا يخرج الفهم عن نطاقه، ويمكن أن نعتبر التلميح كنموذج حين نعلم أن إدراكه يستند إلى شروط ثقافية اجتماعية في عملية التلقي إضافة الى المكتسبات القبلية للمتلقي ذاته، فكيف تستطيع الترجمة تجليته أثناء الصياغة ؟ نقول ذلك لأن الترجمة حالة تناصية خاصة، حيث نضع على محك التشريح ثلاثة أنواع من العلائق النصية : العلاقات التناصية في اللغة المترجم منها، ثانيا مفهوم الترجمة كتكافؤ تناصي، ثالثا التفاعلية التناصية بين النصوص المترجمة ونصوص اللغة المترجم اليها، وكيف يمكن تلقيها، وهذه العلاقات إنما تقسم إجرائيا هنا

غير أنها كممارسة ترجمية تتداخل في كل حين بحكم تجاذبات المعنى في انتقاله من لغة الى أخرى، والذي يفقد الكثير من المواصفات في عملية الانتقال هذه وعلى كل المستويات المعجمية والتركيبة والأسلوبية، فحتمية الالتزام بعلاقة تناصية أثناء الترجمة تجعل المترجم يبحث عن مقابل تناظري، الإشكالية تتأتى من عدم إدراك كامل العلاقة المتكونة من سياقات سوسيوثقافية وتحويلها كجسم غريب في الثقافة المستقبلة، وهذا يحتم خلق فارق بين النص الأصلي وتمثيله الترجمي، فلا يمكن اختصارا نقل علاقات تناصية أصلية ثم تعويضها بتشكيلات معادلة، فليس بنسخة طبق الأصل تتحقق الغاية التناصية، بل هي تلك اللذة الفنية المستوحاة من تلاقي الخطابات داخل حاضنة نصية ما عبر تفاعل خلاق، وهذا يسوق اتجاه مجموع تغييرات تطال التشكل العام، إضافة إلى كون الخلق الجديد (النص المترجم) أصبح نتاج بعد تأويلي في فهم الدلالة الأولى والتأويل كما هو معلوم هو تجاوز تام لوهم التكافؤ l'équivalence في المعنى، هنا التأويل ليس مجرد معطى تكون جراء المعنى فنتبعه النص الأجنبي، ولكنه بالأحرى سعي نحو تثبيت معنى معين وخاص نأخذ فيه بعين الاعتبار النص الأجنبي وأيضا ثقافة اللغة المترجم اليها، متسائلين دوما حول الشروط اللسانية والاجتماعية المناسبة، فالرصد التناصي يتطلب من القراء من جهة أن يقرؤوا الترجمات كترجمات، أي متحررة عن النص الأجنبي، ومن جهة أخرى على المترجمين أن يعتمدوا على تصورات نظرية تتيح لهم حين يترجمون أن يدركوا مجمل الخيارات المفرداتية واللعب التأويلية، فالأسئلة التي يثيرها النص المزمع ترجمته وكيف يمكن أن يتواجد في اللغة الأخرى لا يجيب عنها إلا صاحب ذائقة تنم عن ثقافة واسعة في فهم النص الأول ومتطلبات التعبير في النص الثاني.

إن المترجم عليه بدءً أن يتأمل مجمل النصوص المتناصة المتكونة أصلا في النص الأجنبي، والتي نادرا ما يتم نقل حيثياتها وبدقة في النص المترجم، لأن فعل الترجمة يتطلب إعادة تسييق المعنى، فحتى في اللغات ذات الأصول الواحدة والتي تتشابه وتشترك في

المفردات وطريقة التركيب والصيغ التعبيرية، على المترجم تحريك وإعادة تنظيم سلسلة الدوال كون ما يفقد من اللغة الأولى يكون على مستويين : الأول ذو مستوى نصي والثاني تناصي، وكلاهما جزء هيكلي تكويني من النص لأنه يحتوي شبكة من العلاقات تمنحه الدلالة في إطار الانتماء الثقافي الذي يتلبس اللغة، فنحن بإزاء سياقين يتبادلان الأدوار في نقل المعرفة، لأن هذا ضروري لإنتاج التدليل lasignifiance وهي تلك المعرفة المميزة التي تتمثل في فهم المترجم الخاص للنص الأصلي وصياغة هذا الفهم في اللغة المستقبلة، بل قدرة هذا الفهم على نقل المعنى، ولكن أيضا القيم المصاحبة من مختلف النبرات كالسخرية والتمجيد والعمق والسطحية، وهذه الأحاسيس لا تنقل أبدا عبر الترجمة بذات الكيفية، بل تنتقل عبر عنصر التناظر الثقافي وليس اللفظي، ليكون التعبير من داخل اللغة المستقبلة، لذلك تصبح مجمل التناصات المثبتة التي يراد نقلها بؤرة إشكالية في عملية الترجمة بشكل عام، لأنها تتعلق بصورة عن العالم في ثقافة ما، وهي بطبيعتها كنصوص مبتورة تحيل على خطاباتها السابقة، فنقل جزئية نصية الى لغة أخرى يحرمها من استدعاء خطابها الذي نشأت فيه وترعرعت بين أدراجه والتي هي شديدة الإرتباط به، والترجمة لا يمكن أن تنقل ما يحيل على الخطاب والخطاب ذاته كاملا، وهكذا تكون العبقرية في الترجمة أن نوظف كلمة هي بدورها تندرج في خطاب لتكون الإحالة بمجرد التوظيف على ذلك الخطاب، ليتوفر الرصيد الثقافي الذي يغني الترجمة بطبائع ومزايا اللغة المترجم إليها، فالفهم الذي ينطلق من صلة ما تربط بين نص أجنبي وتقليد أدبي اندرج فيه، يشف عن دلالة لا تتوقف على الكلمات والعبارات ولكن أيضا على الشكل أحيانا، مما يحوج إلى ضرورة البحث عن شبه للخطوط المشكلة للصورة اللسانية للملفوظ، والاستعانة ببعض أنواع النص المصاحب وذلك لاستحداث بعض مجريات السياق الأول، فوجوب تفسير الدلالة الثقافية لتناص ما، يصبح أكثر من ضرورة، وهذا الفعل ينقل المترجم من دوره الأساس ليصبح معلقا ناقدا مؤولا، أي يتصرف في النص المترجم ويقضي تماما على عنصر التكافؤ الأصم بين النصين الأول والثاني، فالعلاقات التناصية شديدة

التجذر في الصور المستمدة من البيئة الطبيعية والاجتماعية كليهما، والثقافية بشكل خاص، ويمكن أن نعطي مثالا لنص أجنبي يستعين بالإنجيل أو يستشهد به، فهل نتبنى ذات المقطع النصي بالعربية مع أن وقع نص إنجيلي في بيئة مسيحية مختلف عنه في بيئة مسلمة، للصلات التي يعقدها مع كيفيات التفكير ومتطلبات السلوك بفعل الإيمان والتمسك بالعقيدة، أو يمكن أن نعوضه بآيات قرآنية تقترب من الدلالة الأولى ولكنها لا تضيع كم القداسة المستدعى هنا في العبارة ؟ فالإشارة الإنجيلية ذات حمولة ثقافية ثقيلة لأن نواتجها دلالية ووظيفية إضافة إلى سلم القيم الذي تبثه، فأي اتجاه سيختاره المترجم بين الالتزام بالنص أم الاكتفاء بتتبع الأثر عبر الاستبدال ؟ وحينما نتأمل مجمل الأثر المترجم نلاحظ الفرق الشاسع بين تصور المعاني في لغتها الأصل وفي اللغة المترجم إليها.

وهنا قد يحق لنا أن نتساءل عن الحد الأدنى من الدلالة الذي يجب الحفاظ عليه أثناء الترجمة، وقد يخضع هذا التساؤل الى سذاجة ظاهرة وكأن النموذج التواصلي هو ذاته، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون تغييرا كليا لحيثيات الخطاب، فالمترجم لا يبطل سياقا فقط بل يخلق آخر، فالترجمة هي إعادة كتابة uneréécriture من هنا هي عملية تناصية لأن الفارق بين إعادة الكتابة والتناص ضئيل جدا، وبذلك نعيد القول حد التخمة أنَ الترجمة عملية تأويلية بامتياز، نتشرب المعنى ونعيد صياغته، ولكن التأويل له مرتكزاته النصية، أي مجموعة شفرات يتم تحويلها كأفكار معينة تتميز بالخصوصية، معتقدات تنقل بتصوراتها، مجموع خطابي شديد الارتباط بسياقه قد يستدعي التعقيب والتوضيح والشرح ، فلا يمكن تقديم فكرة موت الإله عند نيتشه هكذا دون تقديم لحيثيات الفكرة ونشوئها بناءً على خصوصيات تاريخية أوروبية خالصة، وإلا كانت إزعاجا لقارئ عفوي الفهم والتقبل، وكم كانت الترجمة مغرضة عندما لم يحترم المترجم سياقات الكلمة في النص الأصلي كما هو الأمر في مقولة "الدين أفيون الشعوب" وهي مقولة ماركسية أسيئ

استخدامها كثيرا وفق منطق البتر مع أنها في منطقها الأول لا تحمل أي حكم قيمة يحط من الدين أو يستهجنه.

وكذلك أعمال ألتوسير في مقاربته المنهجية لأعمال ماركس خاصة فيما تعلق بالنظرية الاجتماعية خصوصا مصطلح surdétermination حيث يقوم ألتوسير بالبحث في مفهوم السببية الاجتماعية الذي طوره كل من ماركس وهيجل وحيثيات الفارق بينهما بأسلوب كثيف وشديد التجريد لا يليق إلا به، ومحك ترجمة نص كهذا أن يُجزء ويُفصل ويُشرح في ذات اللحظة التي يُنقل فيها الى اللغة الأخرى فيما نسميه بالترجمة الشارحة، وذلك يستدعي إحاطة شاملة لقراءات ألتوسير في كل التراث الفلسفي قبله، لأنه حتى ولو فشلت عملية نقل المدلولات فإن عملية نقل الهوية الفكرية للرجل ستنجح في خطوطها العريضة عبر نقل الأثر التناصي latraceintertextuelleالكن حتمية العلائق التناصية لا تعني طلب المستحيل من المترجم وذلك بتكثيف التعليقات الشارحة، وإنما عليه الاعتماد على المنطق الاختزالي، أي الضغط على الكلمة والتركيب الذين يتم توظيفهما لاكتناز مدّ إيحائي بالارتباطات المغيبة لصالح الدوال الحاضرة، مما يعني أن التوصيف سيكون شديد الكثافة والتعقيد والعمق، وهذا ليس عيبا أسلوبيا في هذا النوع من المتون، فالتعاريف المتخصصة، والشواهد الشهيرة للفلاسفة، كانت دوما محكا تناصيا، إذ هي مقولات متنقلة بين اللغات بكيفيات إفهامية مختلفة، وتشكلت كعلاقات، وأضحت مثار مقاربات معرفية ونقاشات وفق مناهج متعددة أيضا، ومادامت الفكرة الفلسفية دوما عابرة للغات والقارات والأمم كثقافة شاملة فإن تحديد الكلمات المفتاحية لمجمل التيارات الفلسفية أصبح ضرورة لا مندوحة عنها.

والترجمة الانجليزية لتوصيف اشتغالات فرويد على الأسطورة حين حاولت الاقتراب من الأصل الألماني للتعبير المعتمد على الجمل الطويلة، جعلها لغة هجينة تقترب أحيانا من اللامعنى، وهذا يجعل الترجمة خيانة لروح اللغة حين تحاول أن تقترب من الأصل، وأحسن

طريقة هي الطريقة التناصية التي تعترف بالفارق اللساني بين اللغات، حيث تطرح تلك الإشكالية أيضا في المصطلحات التي وظفها سيغموند فرويد في طروحاته النفسية إذ هي مصاغة من الطبعة الألمانية للمفردات الموظفة في توصيف الأمراض النفسية والتي هي خاضعة لتصور ممارساتي بيئي خاص بالألمان، والترجمة لا تتأتى الا بواسطة مؤول شكلي uninterprétantformel خاص، أي نظير تماثلي من اللغة المترجم إليها دون أن ننسى مستوى الخطاب الترجمي، فالترجمة الانجليزية للمصطلحات الفرويدية تندرج في إطار لغة مغرقة في التقنية المتخصصة، بينما تترجم الى الإيطالية في لغة سلسة توظف الملفوظ العام القريب من لغة العامة ، فلا تعاني النظرية الفرويدية من غرابة المصطلح [1] أما في العربية فالترجمة إليها قد قطعت شوطا انطلق من مصطلحات متخصصة وأصبح بفعل التداول لغة عامة مثل ؛ " العقدة " و" اللاشعور " الخ بل قد تم اللجوء الى التعريب مثل كلمة " هستيريا " وهكذا أصبح المصطلح النفسي الفرويدي متداولا في الأوساط المتعلمة وكل ترجمة في هذا التخصص لن تعاني عدم التقبل لأن أساسها التناظري قد تم تأسيسه، ولكن تبقى هذه الكلمات اختزالية تلعب دورا إشاريا على معرفة غائبة، وكل تشكل إحالي حاضر يومئ على مغيب معرفي فهو تناص من حيث الغاية أو الوظيفة، فالترجمة تكون هنا بمثابة تركيب جديد وتأليف أصيل للمعنى، ومحاولة تجنب ما يسميه جاك دريدا l'itérabilité تلك الغربة الدلالية التي تصيب المعنى باليتم، هذا المعنى القابل للتبدل والتغير في كل حين بتغير مركبات السياق.

يذكرنا هذا بما أنجزه الشاعر عزرا باوند حين ترجم شعرا إيطاليا بلغة انجليزية قديمة ليعكس شعور عصر النهضة عبر التناظر الأسلوبي، رغم أنه اعترف بخيبة مسعاه وفشله في القيام بذلك، ولكن هذا شأن الترجمة الخؤون دوما، لذلك نجد كتاب فيليب ليويس "مقياس الأثر الترجمي" يحاول أن يشرح هذه التجاذبية بين البعد التواصلي والتأويل المبالغ فيه، وما التوصيف الأخير سوى تعلة نظرية للعجز عن وضع الحدود، لأن التواصلي إعدام

لكل الغنى الدلالي الذي تمتاز به المتون، وما المبالغة في التأويل أحيانا سوى مبتدأ الحيثية التناصية لمتن كجبل الثلج يخفي مصادر توظيفات نصوصه، لذا يكون استجلاب المعنى نسبيا حين يتعلق الأمر بنصوص فلسفية أو شعرية ذات تلولبات تناصية استدعاءاتها لا تنتهي، وكلما ارتقى نص في سلّم الأدبية بعُدت مآلات الدلالات ذات المنحى التناصي، لأن الكثافة المعنوية لا يخلقها سوى السياق المكرس للدلالة الثقافية lasignificationculturelleإذ العلاقات التناصية تعني فيما تعنيه كل عناصر الهوية اللغوية، ونقلها الى الآخر غير ممكن بالمخرجات الأسلوبية التي نشأت وفقها، لذلك لا يتيسر نقلها الا من خلال هوية الآخر من حيث هي أفكار تُفهم وليس طرائق أو كيفيات للتعبير عن هذه الهوية، وأخطر ما يمكن إغفاله في الترجمة هو ذلك الميل النسقي نحو التقمّص الديني للرؤية الكونية، أو السياسي، الخ من الأنساق، لأن عدم استيضاحه كرؤية للضفة الأخرى قد يُفقد التناص معنى وجوده.

المدرسة الحداثية في الترجمة التي تعتبر نفسها وريثة الاجتهاد الإغريقي أدركت ذلك منذ شيشرون حينما تحدث عن تجاوز الكلمات في الترجمة عدديا ولكنه كان حريصا على نقل نفس الثقل لها، أي الأخذ بعين الاعتبار مجمل الأثر الذي تركته في المتلقي الأول ليُنقل إلى المتلقي الثاني، وما الأثر سوى علائق التناصية مُدركة، ولا نعرف لحد الآن ما هو المنهج المتبع في ترجمة الفلسفة عند العرب في العصر العباسي وفي عهد الخليفة المأمون تحديدا، هل كان النقل يمتح من الحرفية أم أن التصرف في المعنى التناصي كان هو المسيطر، إذ لا يمكن قطع المفهوم عن خلفيته التأسيسية، فإلى أي مدى كان الاختزال موصولا بين الاثنين، فالذي يبعث على الحيرة، أنّ الإرادة المعرفية حرصت على بتر الجذور العقدية كي لا تتسرب الوثنية إلى المجتمع الإسلامي، ومن جهة أخرى نعلم كيف انتشرت المصطلحات الفلسفية على نطاق واسع وأصبحت مثار نقاش عقائدي وصل حتى الى العامة من الناس، فهل تم الاستيعاض عن خلفية القيم الفلسفية الوافدة بأخرى تتأسس بها الفلسفة

ابستيمولوجيا من جديد ؟ حيث نعرف أن المدرسة الأندلسية في الترجمة كانت تعتمد الإفهام والوضوح في النص المترجم أي الترجمة الشارحة خاصة في القرن التاسع الميلادي، وبالتالي كانت أكثر تسامحا في أية علاقات تناصية ترد كمستلزم مفهومي للفكر السائد، لذلك على المستوى التصنيفي، كل ترجمة حرفية ستنال بالضرورة من الترجمة التناصية، وتوازيها في ضدية كاملة، لأنها لا تعير اهتماما لمستويات البث المعرفي والترابطات الخلفية، وكيف تفعل ذلك وحرفيتها مانعة ولا تستطيع تحمل سوى مستوى واحد، فهناك ارتباط عضوي بين الغنى التناصي ومستويات الخطاب، ومن يتحدث عن الأمانة ووجوب حفظها لا بد أن يتخلص من ضحالة الإدراك في كون الأمانة متصور ذهني يمتح من الثبات والأحادية، وحفظ العلائق التناصية الأولى لتعكسها أخرى أمانة في غاية الرقي القرائي والتدويني معا، إذ "هنا بالضبط يعيش المترجم في مقصدية الترجمة، هذه وضعية هرمينوسية تتسم بالتفاعل وتفتح الأفق الممكن للنص كي يوسع من أفق فاعليته، فحين قرأ الجمهور الفرنسي كتاب الوجود والعدم لسارتر لم يكن أحد يتوقع أن يكون وراءه نص آخر هو الوجود والزمن لهايدغر الذي سبقه إلى الوجود بما يناهز الثلاثين سنة. وحين ترجم كتاب هايدغر سنوات بعد ذلك حجب بشكل كبير كتاب سارتر وغدا المرجع الفعلي في هذا المضمار بالرغم من الأهمية التي ظل يكتسبها كتاب سارتر، بمعنى أن الترجمة تعيد إضاءة الاقتباس والتناص إضاءة جديدة وتعيد كتابة تاريخ الأفكار من جديد" [2] فالقراءة الأولى لسارتر إنما تمت في ظل جهل العلائق رغم التواشج الحميم لأصول الأفكار، سارتر له فضل التفريع والتطوير لوجودية مؤمنة من رحم أخرى ملحدة، فشكل بعد ذلك كتاب هايدغر اكتشافا معرفيا ولكنه يتم استنادا على العلم بالجذور وفقا للتأسيس السارتري في الجغرافيا الفرنسية رغم سبقه الزمني، فكان التعاطي الابستيمولوجي وافيا تحركه خلفية تناصية ليكون أمكن في حسن تلقي هايدغر فرنسيا رغم خلفية ثقافته الألمانية، فشكل كتابه حوارا بين ثقافتين، لذلك لابد أن نؤمن أن الترجمة آلية من آليات الترافد التناصي بين المتون سواء المنتمية لذات الثقافة أو الخارجة عنها، ويتحول المتن المهاجر إلى تراث

إنساني مشع، يضيف روافد تناصية لا تحصى أكثرها يتم إعدامها لحظة الترجمة وحرمان متلقيهامن زخم معرفي ثمين، ولعل ذلك لا ينطبق تمام الانطباق على النصوص ذات الخصوصية العقدية مثل النصوص المقدسة، حيث أصبحت هي ذاتها مصدرا تناصيا، لذا حين نتأمل كيف كان انتقال المعنى عند ترجمة الإنجيل ندرك أن للصيغة التناصية أثر حاسم في نقل الدلالات، فهذا المتن الذي تم تداوله عبر عدة لغات، لابد أن يترك أثره الكبير باعتباره نصا يتعبد به، لذا لا معنى للقول : "فلان قرأ الإنجيل"، بل أصلح منه أن نقول قرأ ترجمة للإنجيل، إذ وفق خريطة طريق استقرائية نتتبع فيها توظيفات الإنجيل، نجد الترجمات كلها قد ضيعت دلالات بحكم سوء الفهم أو سوء النقل، وهذا هو المعنى الأقنى للتحريف الموضوعي، وليس التحريف القصدي الذي يكون غرضه التلاعب بالمقصدية الترجمية، هذا على مستوى الخطاب الديني، وكذلك الأمر، بل أكثر كثافة، على مستوى الخطاب الأدبي الفني، حيث "باسترناك Pasternak ومارينا تسفيتايفا M. Tsvétaïeva لا تعني الترجمة بالنسبة إليهم انتقال النص بين اللغات فحسب، لكنها تعني أيضا وجود سلسلة انتقالات أخرى بفعل الكتابة، وبشكل أكثر سرية بفعل الحياة والموت، وقد كتبت مارينا ما يلي : «إنني أرغب اليوم في أن يتحدث ريلكه (Rilke) من خلالي، ويسمي ذلك في اللغة المألوفة ترجمة، وكم تبدو الكلمة الألمانية nachdichten مميزة والتي تعني إعادة شق الطريق فوق آثار غطاها العشب في نفس اللحظة" [3] أي لحظة تناصية حين تتماهى مع اللحظة الترجمية، أي حين يكون قول الآخر المختلف لغة وثقافة، لسان حال الذات، مع أنها لا تعاني العي ولا العجز عن التعبير، لكن جمالية الكلمة تبهر، وتقفز على الحاجز الألسني، هنا من الألمانية إلى الروسية، لكن الشاعرة تتحدث عن خطاب ولم تحسب حساب الفارق اللغوي، والتأثير والتأثر منفذه القراءة والإعجاب بالمكتوب الذي تنكتب به إنسانية الإنسان في بهائها الإبداعي، على أن التناص في مساره التأثيري لا يعلن عن نفسه، بل ينضمر في ثنايا المتون والتي قد لا تكتشف إلا بعد الموت، أليس البحث في أثر الأدب الألماني في الأدب الروسي إحياء لبعض مباهج الأول وتمجيدا له؟ كيف لا يتحدث ريلكه من

خلال الشاعرة وبقلمها وهو يتلبس روحها هياما إذ المشترك الإبداعي تماهي رومنسي من وحي استبطاني يستلهم الطبيعة الحيّة، فإذا كان ذلك في اللغة المألوفة ترجمة، فإنه في اللغة غير المألوفة تناص، فالتناص شاهد unecitation من وحي الآخر تردده النفس التي تتنفس إبداعا، لكن إعادة شق الطريق بعد أن غطاها العشب يجعلها طريقا تمثل بنية عليا لها أساس من مسبوق القول، وكأن الشاعرة تقول أنني أكتب من وحي كلمات ريلكة عبر إعادة تدويرها، عندئذ لا يمكن الفصل أبدا بين الترجمة والتناص.

3. التباعد والتقارب

في التوصيف التاريخي التالي نلاحظ تطابق المفاهيم بين الترجمة والتناص، حيث أن "لفظة مزج syncrétisme تعني تأليفا غير متماسك وخليطا من المذاهب والأنساق، وسنرى لاحقا، كيف أنّ هذا المزج هو خاصية مميزة للترجمة المتمركزة عرقيا وللترجمة التحويلية، وللإشارة، فإنّ نفس المزج أوجد الفن الروماني، في المسرح والمعمار، وخصوصا في صناعة التماثيل التي كانت نوعا ترجمةً للتماثيل الإغريقية، وهكذا، فإن الخاصّية الرومانية (romanité) تحدّدت في جزء كبير منها بنزعة ترجمية (traductionnisme) مهيمنة وعديمة الذمة، كما نعتها نيتشه" [4] لكن المزج في بعده القاموسي يختلف عنه كتوظيف إسقاطي لتوصيف الترجمة، لأن للترجمة طابعا متنيا، والمتن له انسجامية معيّنة تخدمه وتصنع اتساقه فلا يمكن أن يكون فوضى وخليطا يفتقد إلى التجانس، وإنما المقصود هنا أن الترجمة حاملة لآثار نسقية لا تعرف مصادرها ولا تتعيّن بسهولة، لأنها خليط أمشاج مبتورة عن سياقاتها، لكنها تتمنطق تماما على مستوى التوظيف النصي المترجم كونها تخدم دلالة موحدة، كما أنّ الترجمة كفعالية ثقافية تسوق أمامها تلك الجزيئات النصية المستجلبة كمبتسرات وتصنع منها حدثا دلاليا، حيث تكون لنزعة الريادة الدلالية اليد الطولى في تحوير النص وتوجيهه نحو مغزى مستهدف يحقق الغاية المرادة، فتصبح النصوص المستضافة مجرد مكونات لفضاء المتن العام، لهذا يتم الحديث عن التمركز

هنا، والحقيقة أنها سمة تحريرية لكل النصوص وطبيعة لا تاريخية، ولا زمنية، ذلك أن الذات المنتجة تقولب الأشياء وفق معطياتها الذاتية وتستعين بمكتوب الغير لتحقيق هذه الغاية، هذه سمة الكتابة والفن والإبداع بشكل عام حين تتمنطق تناصيا.

حين ترجم شاتوبريان الفردوس المفقود لميلتون، وجده نصا يمتح من التعاليم المسيحية، وخصوصا من الكتاب المقدس بنسخه العبرانية واللاتينية والانجليزية، كما أخذ من التراث الإغريقي ومن إيطاليي النهضة، وكل هذه الاقتباسات ممارسات تناصية ترجمية، أي عبرت الحاجز اللغوي على مستوى الملفوظ والأفكار معا، لذلك يبقى التساؤل الترجمي كبيرا على مستوى العمل سواء تعلق بترجمة شاتوبريان أو آخرين، لأن ترجمة الفردوس تضطر مترجمه للرجوع إلى المتون المتناصة في مصادرها الأصلية، ومن هنا تكون الترجمة مراجعات لترجمات الأصل، أو يتم القفز على متن الفردوس في إثباتها من مصدرها الملفوظاتي ورصد التغيرات الدلالية التي طرأت عليها في نص ميلتون، هذا يعني أن نعرف طبيعة التغييرات التناصية في إنشاء ميلتون، وهل كانت دقيقة أم في قالب شعري يتجاوز حرفيتها ؟ وكيف يستفيد مترجم الفردوس من الترجمات التي تأسست في الفردوس ذاته ؟ سنتحصل على مقارنات جمة وكلها ذات طابع تطبيقي، يقول شاتوبريان معلقا "هكذا توجد في ترجمتي مصطلحات تحيل على المجامع الكنسية ولغة الكنيسة الرومانية والثيولوجيين البروتستانت، وقد قمت بمجهود كبير في إبراز هذه الحيل" [5] وما اعتبره شاتوبريان حيلا هي مجموع التناصات والنصوص التي استدعاها ميلتون لإعمار متنه الشعري وذلك لغنى هذه الأقول وتمكنها من صدره، وإنما هي حيل لأنها تستدعى لتنميق النص والإعلاء من أدبيته، وكونها خطابات ذات نوعية أيضا، فاستبطان الخطاب الديني في نص شعري هو تناص ديني لابد من تحليله في تركيبيته، ولكننا لا ننسى شأن الكلمات المفردة، ودورها الحاسم كمخرجات تناصية، حيث "تصل الصعوبة ذروتها مع الكلمات المفتاحية Grundworter التي يفرض عليها المترجم أحيانا الطريقة الحرفية كلمة كلمة،

حيث تتخذ الكلمة معادلا ثابتا في لغة الوصول، لكن هذا الإحراج الشرعي له حدوده باعتبار أن هذه الكلمات المفتاحية الشهيرة هي ذاتها مضغوطات مركزة لنصيات طويلة حيث تعكس سياقات كاملة، فظواهر التناص متخفية في ضرب الكلمة ذاته" [6] وحاملة لتاريخ طويل من الاستعمالات والصيغ التي لها أصول شتى، محلية ووافدة، تنتشر في أنواع لا تحصى من النصوص التي طالها التمزيق والبتر لتدخل في تأسيس هذه الكلمات المفتاحية التي صيغت على شكل منوال جامع لمجمل رؤى تحمل موروثا معرفيا، وهذا ما يؤكد أن الفكر النصي يصنع قارئه، لذا مقولة هيدغر التي يقول فيها أن السيطرة للغة وليس لمتكلمها صادقة تماما، هذا الذي يعتقد أنه قد سيطر عليها، لكن حقيقة الأمر أنها هي التي صنعته، فقد استوعب طرائقها من أفواه الآخرين، ثم من أقلامهم، عند الترجمة يستخدم أقوالهم وأساليبهم وقيمهم الفنية لينقلها إلى لغة أخرى، فهي نقل لمنجز منسوب لمؤلف، أي ألفه مما سمع وقرأ، فالتأليف هنا الجمع والتخير والتثبيت، فتآلفت الأقوال في متن واحد، بفهمه الذي نضج بهضم ما أنتجته الأذهان، وصياغته التي صنعتها مقروءاته في النصوص، فما المترجم سوى كتلة معرفية حية محاولة، وهذا ما يبين أن الترجمة ليست تطبيقا لسانيا بقدر ما هي حقل مستقل ابستيمولوجيا، حين تساهم في سبر العلاقة الاستبدالية بين لغتين على مستوى فصل الدال عن مدلوله وإعادة علائقيته بلغة أخرى، وبين القتل والإحياء، تنبع النظرية، فتضيئ لنا أفق الكتابة عامة.

يبرز السؤال التالي في معرض التأمل التنظيري الذي يعضده التطبيق : حضور كثافة تناصية في النص المترجم عامل مساعد لإثراء الدلالة، أم عامل مثبط للفعل الترجمي، إذ يتسبب في تعقيد ونصب كبيرين ؟ خاصة أن هناك إحساس بحجم لا يضاهى من دقائق المعاني وألطافها تضيع دون القدرة على سد مسدها في لغة الترجمة سوى بواسطة النظير، هذا الأخير مختلف مادة ونوعا عن الجزيء النصي الذي يغذي الأصل، فالحضور التناصي في اللغة الأجنبية يشكل تحديا حقيقيا لقدرة المترجم على التمثل واستيعاب كل تلك

الطبقات الدلالية عبر استحداث شبكة علائقية من الحقول الدلالية المفعلة تناصيا، مما ينتج ترجمة ذات مستويات متدرجة خطابيا ولكنها كثيفة الطاقة الاستيعابية لتعدد المكونات المشكلة، كون المترجم مضطر لتفكيك سياقات النص الأجنبي واكتشاف مرجعياتها المتنية، وهو بين المطرقة والسندان : إما إغفال تلك المكونات وهذا سيكون له أثره السلبي على تدليل الترجمة الذي يمثل تميزها، أو أخذها بعين الاعتبار، هذا الأخذ إبداعي في مجمله ومتعالي، يحقق على الأقل تراسلا دلاليا مع الكيفيات البنائية للأصل، بفعل الإيحاء بشبيهها، والإيماء لأشكالها ولنظائرها اللسانية على مستوى المفردة والتركيب الأسلوبي، وعلى المترجم أن يشير من وقت لآخر في الهامش إلى أهمية وأثر بعض التراكيب التناصية مركزا على محمولاتها الثقافية، فقد اشتهر التناص بانتمائه إلى تصنيف ملفوظاتي عنوانه lexiculturel أي الكلمات الدالة على أثر ثقافي لكنها مندمجة في ملفوظية عامة uneénonciationgénérale يدركها مباشرة القارئ الحصيف، ولكنها تصبح غير ذات موضوع ولا معنى حينما ترد في نص أجنبي تتم ترجمته، لأنها مدركات الثقافة المصدرة للمعنى، تتأسس بها وتدير حواراتها من خلالها، ولا سبيل إلى ترجمتها، فكيف يتعرف القارئ الأجنبي على عصارتها حينما تتمحض خلاصة موقف فكري أو رؤية كونية ؟ الذي يمكن تعرفه هو شكل التأثير التناصي عبر تجاوز شكله اللعبي أو تمظهره الأسلوبي الذي لا تعكسه قواميس الترجمة، كونه يدخل بين مقاطع متنية دائما بطرائق جديدة، إبداعية النص هي الوحيدة المتحكمة في كيفياته، فإذا تعلق الأمر بالإبداع فذاك يعني بطلان قدرة النقد على التنبؤ، في ظل تنوع في أهداف التوظيف، واختلاف الغايات التعبيرية، مع اعتماد أشكال لا تنتهي بين تلميح وتصريح، نجدها على كل مستويات الإبانة وفي خضم النصوص الطويلة، ولعل أبرز النصوص القصيرة المرشحة للترجمة والتي تعكس كمونا تناصيا هي عناوين الصحف والمجلات وأسماء الأفلام المدبلجة، وكلها خاضعة لمعالجة خاصة لأهميتها القصوى لأنها أول ما يتعامل معه القارئ أو المشاهد المستطلع لقراءة صحيفة أو متابعة أحداث فيلم سينمائي، فعادة ما تتماهى مع مستحضر قولي مجتمعي لافت مثل الأمثال

والحكم والأغاني والشعارات والنص الديني وخطابات معروفة أو كل نوع من أنواع مشهور القول، فكأن القارئ مدعو كل مرة لإعادة تشفير الإحالة ليفهم ما عناه العنوان وسكت عنه.

وكما تحدثنا في الفصول السابقة عن الترجمة الذاتية، هناك أيضا التناص الذاتي l'intratextualité وهو ما يتكرر من عبارات عند الكاتب من أعماله السابقة بوعي منه أو من دون وعي، ولوعيها من طرف المترجم عليه أن يطلع على مجمل إنتاج الكاتب وتتبعه كرونولوجيا من أول عمل إلى آخره، هذه الكرونولوجيا تساعد المترجم على إعادة ترتيب المقولات التي تمنحها التكرارية وجودا تناصيا ذاتيا، كما يخدمه هذا النوع من التحليل في فهم واستيعاب المعاني المحورة التي ارتقت من أول استعمال لها إلى العمل المقترح للترجمة، كما أن لها قيمة فكرية عالية من حيث هي نماذج ناضجة لمفاهيم اختزلت تكراريتها عمق الدلالة المتراكمة مع الزمن، إذ أن التحول في المفهوم بسبب ماضيه الاستعمالي يؤدي به إلى تعميق حيثيات الإيماءة التدليلية بحكم التوجيه المغاير كل مرة، وهذا هو التنوع الذي يكرس التعدد في النمط الأسلوبي الواحد، فعنصر الإضافة لا يخبو أبدا حين يقع تحت عين الناقد المترجم المتفحصة، الذي يتتبعه، ويميزه لتمحيصه، ثم لتعيين دوره المحوري في التشكيل العام الذي يكشف آليات التفكير وكيفياته والقضايا التي تتمحض هاجسا إبداعيا لديه، لذا الكثير من المبدعين يركزون على أساطير بعينها، الحضور الأسطوري وجود تناصي لا شك فيه، وبين الأسطورة التي لها تاريخ كما هو الأمر في الأساطير اليونانية، أو الأساطير المحلية ذات الصدى المحدود، التقاط المترجم لمجمل التوظيف الأسطوري وسبر تأثيره أو مشاركته في الدلالة يغني ترجمته ويجعلها أقرب إلى روح تعبير الكاتب لأنه فهم أدواته التعبيرية التي تمتهن الإفصاح من خلال التلميح، فالأسطورة لغة داخل اللغة، لها سمة تعيينية للمعنى ولكنها تختزن وتختزل من خلاله كمية غير محدودة من التأشير على عوالم بعيدة يتم استحضارها بقوة الإحالة، على أن الفارق بين الأصل والرؤية الترجمية أن الأسطورة مدرك مخيالي رغم وروده في صيغة توصيفية، يشتغل ببعض التحيز الصورائي لملمح واقعي تستمد منه ماهية الأسطورة في شكلها النهائي، تعدد الملمح الأسطوري هو اختلاف متوحد مرتبط بحيثية مفردة، وهذا ما يتم ترجميا دون إرادة من المترجم في توجيه

الدلالة، وإنما هو ذاته خاضع لتصور ما عنها تم استحضاره من مجموع الاستكفاءات الذهنية التي كونها مع الزمن، لذا يكون تفاعل الترجمة مع الأصل طرديا لكنه عكسي، أي كلما كان التوظيف التناصي واضحا كان المترجم أقل عرضة لاستعمال الخيال في فهم الدلالة، وسيكون واضحا بدوره، أما إذا كان المعنى حمال أوجه، فيحق للمترجم اختيار الوجه الذي يراه أكثر أهلية لاحتضان الدلالة، فالمترجم يولي عناية لأية إشارة دالة وكاشفة، فعندما يستغلق المعنى تكون له قوة الاقتراح، لكن هذا الاقتراح قد يخون القوة التناصية الناظمة لعمق النص وأهليته للبث الكثيف، التناص في متن ما يمثل ذاكرة الكاتب الثابتة والمتحركة، الأولى استشهادات ترد تصريحا أو تلميحا، الثانية شواهد متصرف فيها، أي متحولة إبداعيا تحتاج جهدا لكشفها، لكن الجهد الأكبر يتمثل في القدرة على تمثلها ترجميا، إذ ترجمة التناص تعني تلك المطاردة الطويلة لجزيئيات نصية تعري خطابها الذي وردت منه، وما هي أداة المترجم في الكشف ؟ هي انطباعية أولى مفادها : أين قرأت هذا من قبل ؟ عند مقاربته قرائيا لجمل اندرجت في تأسيس نص أو عمل يعتزم ترجمته وهو على وعي تام بإنه لم يتعرف عليه من قبل ولم يقرأه، تتكشف التناصات على أساس حضور مصاحب co-présence يندرج كنص ثانوي يشارك في معمار عموم المتن، وللمترجم أن يوليه اهتماما فيترجمه في إطار ترجمة النص العام، أو لا يوليه أي اهتمام فيفقر الدلالة ويرسلها أحادية، حيث لابد من التركيز على وظيفية النصوص التكوينية هذه، فهي ليست غاية الخطاب، ولكنها تشارك فيه كوسائل توضيحية أو تأشيرية، أو لنقل أنها تصنع بعض حيثيات السياق وليس كله، فهي شديدة الارتباط بالغايات التعبيرية المراد تحقيقها للعمل، لكن هناك نصوص تكوينية أخرى مبثوثة في النص الأكبر (العمل) انتشارها لا يخضع لأي منطق سوى لمنطق الصفحة الجامعة لها متنيا، إنها شواهد كولاجية حرة، والكولاج collage اختلف حوله المنظرون حول انتمائه للتناص، لكن أغلبهم يقول بانتمائه إليه، هنا يريد المؤلف أن يعبر عن شتات المعنى من جهة، وليترك نصيبا من التحقق التأليفي يشارك به المتلقي، هذه التناصات الجزافية أصعب ترجمة من تلك المنتظمة التي تخضع لإستراتيجية النص، لأنها محط تقييم عام يقوم به المترجم ثم يحدد لها بعديا وظيفتها بعد اختبار سلاسة المعنى، إذ هي متعلق عضوي باستشكال هوياتي كما أسلفنا، وعلامة فارقة بين التوصيف الواقعي وعمل المخيال، يتعاضد مع تركيبة الكتابة

فوق الكتابة ودور القارئ في الانخراط في هذه الطروسية التي تثبت وتمحي، فالنص له إستراتيجيته المتمثلة تناصيا في إظهار مرجعياته أو إخفائها لأهداف جمالية، وهذا يربط التناص أيضا بفنية عرضه، لكن لماذا تتمظهر الأصول التناصية كأجسام غريبة تسبح في ماء النص المزعم ترجمته ؟ وهل هي كذلك بالفعل أم الجهل بمرجعياتها يجعلها تبدو كذلك، وهل ستنحسر الغربة هنا في ضبابية وظيفتها إذا لم نفهم لماذا صيغت العبارات على هذا النحو أو ذاك ؟ ولقد قسم التنظير التناص إلى فئتين دلاليتين : الأولى عبارة مفهومة حتى ولو لم ندرك تأسيسها التناصي، كونها تتأرجح بين مستوى خطي وآخر حامل لفضل الدلالة. الثانية عبارة غير مفهومة إن لم ندرك تأسيسها التناصي، وهذه الأخيرة هي التي تشكل عائقا ترجميا كونها تحتاج إلى حفر وبحث في ثنايا الأصول، وبعد وعي رهاناتها يصبح من الصعب إغفال هذا العمل في الترجمة مما سيشكل تحديا حقيقيا يرهن نباهة وذكاء وثقافة المترجم، فالترجمة تشبه في بعض أحوالها أنبوب تصفية unfiltre أو مرشحة يمر عبرها النص في لغة المنبع ليس لتنقيته من شوائبه، بل ببعد أن لا شيء يعزب عن علم تلك الآلية المحللة المفككة والمركبة مرة أخرى، فالمترجم إذا أراد ترجمة التناص عليه أن يراجع سوابق النصوص، أي تذكر مقروءاته، والاطلاع على لواحقها، يعني حين يصادف المترجم نصا وتظهر إشارة ما على التأثر بعمل لم يقرأه، ما عليه سوى قراءته، وهكذا يكون التناص أداة تثقيفية مستقبلية للمترجم ذاته، فالترجمة آلية اطلاع أيضا على مجهول البيان والأعمال، بل يحتاج المترجم إلى قراءة كونية متكاملة ليستطيع لملمة شظايا الرؤى المتناثرة التي ترد كوجهات نظر في الكتب المقروءة، هذه الكتب والمصنفات التي تتبادل الأدوار بينها في جميع المجالات وفي جميع الحقب لتشكل في النهاية ملمحا يسمى المقروءات، وذاك هو التناص في مجمله، لأنه قراءة أحادية الاهتمام والتركيز، بمعنى أن المترجم عليه أن يخوصص انتباهه الذي يمكن أن تحضى به حبكة إذا كان العمل رواية، أو تبتلعه نغمية جمالية إذا كان العمل شعرا، حينها لن يتمظهر التناص قرائيا، فهو يتمنع إلا على من بحث عنه عمدا دون غفلة أو انشغال، فالتناص مستبد العرى لا يمنح عمقه بسهولة لمترجم يستسهل عمله، كونه منادى ثقافيا أكثر منه واقعا لغويا، المترجم قارئ حصيف يعيد الخطى القرائية مرة بعد أخرى ويقارن مع مقروءاته السوابق، لكن يبقى الأثر التناصي متنوعا على مستوى التمظهر يمارس المخاتلة لغايات أسلوبية أو دلالية، فالمترجم لا

يستطيع في كل الأحوال تحديد الانتشار التناصي إلا لماما، فالنص يشعره بأثر ما ولكن ليس في مقدوره حصره، إذ هناك تشابها في البصمة الأسلوبية التي لها انتماء، لكن هل يمكن البرهنة على تلون أسلوبي زئبقي يأبى القبض عليه ؟ الإشكالية كيف يعكس المترجم هذه المسحة غير الواضحة لحضور تناصي يأبى التجاهل ولكنه لا يفصح عن نفسه تمام الإفصاح، فإذا كانت جمالية النص وجزء من دلالته مرتبطة ارتباطا عضويا بهذه المنزلة بين مستويين أي الوضوح والإبهام، النتيجة غموض تتأسس عليه الرؤية التناصية، شفافية الترجمة تتطلب ألا يتم التفريط في هذا البعد، والقدرة على استيعابه مسألة اجتهادية وكفاءة فنية، لنقول أن هناك التناص الواضح والآخر الغامض، المحدد والهائم على وجهه، لكنه في النهاية موجود وعلى الترجمة أن تعكس درجة توظيفاته، فالتناص معقد الوجود، عند سؤالنا هل عكست الترجمة درجة ذلك التعقيد نكون بإزاء محاكمة العبارة بمنطق الحقيقة والخطأ، بين حقيقة النص الأول وانتقال تلك الحقيقة عبر الترجمة، لكن هذا التصور ليس أكثر من مشروع فهمي ظني، لأنه لا توجد حقيقة تناصية كاملة الأركان في النص الأول، ولا توجد درجة ثابتة من التعقيد، وإنما هي قدرة غير قارة من الاختراق تختلف بين القراء، وستبقى تلك الفجوة الإدراكية أبدية تتراوح بين حدين : أقصى وأدنى، فكيف نحكم على ترجمة أنها ناجحة تناصيا ؟ ومن الذي يستطيع إصدار هذا الحكم بجودة الاتقان من عدمه ؟ لذلك نقول أن هناك فهم وسطي يدركه الخاصة من النقاد لا حق للمترجم أن ينزل دونه، الفارق بين حقيقة الدلالة التناصية والمدرك منها قد يكون دقيقا وقد يكون متسعا، على أن رصد التناص له متسع تقاطعي غير مرئي وغير منتظم، فإذا كان النص المترجم قد عكس مقاطع لأعمال معروفة، هذا يعني أن متلقي الترجمة يكون على علم ببعض تباينات النصوص التأليفية للنص المترجم، مخاطبة القارئ هنا لا تتم وفق فراغ ذهني، بل على قاعدة : أين قرأت هذا من قبل ؟ لينعقد لديه منطق مقارن بين ما هو معروف لديه وما هو مسطر أمامه، وفي هذا المفترق القرائي أبعاد جمالية جمة، لأن هناك القول الذي يرد كمكون تناصي، وأهم منه كيف تم إيراد ذلك المكون ؟ أي الصورة التي عرض بها نصيا وترجميا، فكل متقبل معرفي مر بالذاكرة يحتاج إلى تجديد تعهده النصي، ليس في فحواه لكن في طريقة تناوله وفنية تداخله مع المكونات الأخرى، إذ لا توجد تكرارية معرفية صماء، العارف بالنص يتكون لديه أفق انتظار يبتغي التجديد وعلو

المبادرة، أما إذا خلا ذهنه منها فهو لن يتعرف عليها أصلا، ولذا فهو غير معني بدلالاتها الإضافية، لكن المترجم يثبتها في نصه إن استطاع، لأن القراء كثيرون ومستوياتهم متنوعة، أي أن القارئ الافتراضي متعدد المستوى علوا وانخفاضا، أما إذا كانت الترجمة تخاطب جمهورا مختارا un public averti ميزته معرفته المسبقة لتناصات القول السابق، فلا بد للنص اللاحق، أي الترجمة، من إبداعية خاصة تراعي علو الهمة التي يمتلكها المتلقي المميز.

الهوامش:

1 Traduction, intertextualité, interprétation. Palimsestes. N18.2006. Paris. P17.42.

2 الصورة والآخر . فريد الزاهي. دار الحوار. اللاذقية. ط1 . 2013 . ص 248

3 الترجمة والحرف أو مقام البعد. أونطوان بيرمان. ترجمة عزالدين الخطابي. المنظمة العربية للترجمة. القاهرة. ط1 .2007 . ص 39 .

4 الترجمة والحرف ص 50

5 الترجمة والحرف ص 145

6 عن الترجمة. بول ريكور. ترجمة حسين خمري. منشورات الاختلاف. ط1 . 2020 . ص 18 .